

تجليات تفاعل حدي القراءة والكتابة في مرايا القراءة لخالد بلقاسم

Manifestations of the Interaction of the Two Boundaries of Reading and Writing in Mirrors of Reading by Khaled Belkacem.

* عبدة محمد¹ / بكاي محمد²Abda Mohammed¹ / Bekkaye Mohammed²

مخبر الدراسات الأدبية والأندلسية.

المركز الجامعي مغنية (الجزائر)

University Center of Maghnia (Algeria)

abdamohammed12@gmail.com¹ / mohammedbekkaye86@gmail.com²

تاريخ النشر: 2026/03/02

تاريخ القبول: 2025/10/26

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

أهم ما يميز المنجز النقدي لعبد الفتاح كيليطو، اشتغاله بمساءلة التراث العربي القديم، خاصة، ذلك الذي يعتمد الحكي والسرد، القابل للتناسخ والتحول إلى أدب، مُحاولاً بعث هذا التراث وإحياءه من قبيل التجديد، والبحث عن المسكوت فيه، مُتَكِنًا في ذلك على آليات قرائية جديدة، تُمكنه من الاقتراب من تخوم النصوص العربية القديمة، وسبر أغوارها، عبر تأويل مُنْفَتِحَةٍ على تناسل الدلالات، مُشرعة على اللاتباقي. ودراسته للمقامات، وحفره في أساقها الثقافية المضمرة، وإعادة صياغته لبعض المفاهيم، هي من صميم الفعل القرائي، الذي يطبع جل أعماله النقدية.

فكيليطو، ناقد مُدَجِّجٌ بخلفية معرفية متينة، مُنْفَتِحَةٍ على نظريات نقدية معاصرة، وهو المُلمُّ بلغات أجنبية متعددة، خُولت له الإطلاع على الأفكار الفلسفية التي تُكرس استراتيجية الاختلاف والمفارقة، ذلك من قبيل، تفكيكات دريدا Jacques Derrida، وتأملات بارت Roland Barthes، وحفريات فوكو Michel Foucault.

وعليه، فإن الدراسة تنغيا تتبع مسار الفعل القرائي للتأويل للتراث كيليطو من داخل الفعل الكتابي، من حيث إنتاجه للمعنى، وتوليده للدلالة، عبر استراتيجيات التأويل والتفكيك على السواء.

الكلمات المفتاحية: حكي، تأويل، فعل قرائي، فعل كتابي، كيليطو.

Abstract :

The most important thing that distinguishes the critical work of Abdel Fattah Kilito is his work in questioning the ancient Arab heritage, especially that which relies on storytelling and narration that is capable of being replicated and transformed into

* عبدة محمد: abdamohammed12@gmail.com

literature, trying to resurrect and revive this heritage as a means of renewal, and searching in it for what is silenced, relying in doing so on new reading mechanisms. It enables him to approach the boundaries of ancient Arabic texts, and explore their depths, through interpretations that are open to the reproduction of meanings, opening to the infinite. His study of the shrines, his digging into their implicit cultural patterns, and his reformulation of some concepts are at the heart of the reading act, which characterizes most of his critical works.

Kilito is a critic equipped with a solid knowledge background, open to contemporary critical theories, and he is familiar with multiple foreign languages, which allowed him to gain access to philosophical thought that devotes a strategy of difference and paradox, such as Derrida's deconstructions, Barthes's reflections, and Foucault's excavations. Accordingly, the study seeks to trace the path of the reading act of critic Kilito from within the written act, in terms of its production of meaning and its generation of significance, through both interpretation and deconstruction strategies.

Keywords: narration, interpretation, reading act, written act, Kilito.



مقدمة:

لعل مرافقة الباحث خالد بلقاسم في رحلته البحثية لمنجز عبد الفتاح كيليطو تقودك حتماً للإنصات بعمق إلى تجربة قرائية فريدة من نوعها، تجربة حفريّة، حولت هذه القراءة إلى قراءة فعّالة - كما يُسمّيها التوسير - مُنتجة للأدب، تلك التي يدعوها بارت القراءة الحية، الخلاقة، المولدة للتصوص، وهي نفسها، التي يراها نيتشه، قراءة مُشجّصة للأعراض، مُتفحّصة النص، ومُتوقّفة عند أعراضه، وهي كذلك، ما يؤكده مورييس بلانشو Maurice Blanchot أنّ "هناك قراءة فاعلة ومنتجة، تثيرنا إذ تنتج نصّاً وقارئاً، وهناك قراءة سلبية تخون النص، متظاهرة بأنّها تنصاع له، وتوهم بأنّ للنص وجوداً موضوعيّاً وكيّاً وسيادياً [] ، وأخيراً، تستعصي القراءة عن الفهم والرغبة دونما متعة أو التناذير"¹ فالقراءة الفعّالة هي إنتاج حميميّة، تنشأ بين القارئ والمقروء، والتصوص المُنتسبة إلى اللانهاي لا تُفضي بأسرارها إلى أيّ قارئٍ كان، بل تُحبّجها، إلّا على قارئٍ عميقٍ، ذي خلفية معرفيّة، يمتلك خاصيّة "التنبّه" إلى شذرات منسيّة في غياهب التصوص، فتقرّده، أي القارئ، بهذه الخاصيّة يعزّز امتلاكه دمغته الذاتية القادرة على تجلّي الحقائق وإظهارها، بالرغم من حرصها على الاحتجاب، وكما "تحتاج القراءة إلى نصوص تُمكنها من التوجّل نحو اللانهاي المحيّد لفعالها، تحتاج التصوص

أيضاً، إلى قراءات مُذهلة كي تحيا هذه التصوّص في سحاء الاحتمال الذي تُتيحه لها هذه القراءات، خصوصاً، القراءات التي تتحقّق بوصفها ممارسة أدبية، أي ممارسة مُنشغلة بتحويل المقروء إلى عمل أدبي².

إذاً، فالقراءة قراءات؛ قراءة مبنية تقوم على إستمولوجيا المباشرة، وعلى ميتافيزيقا الحضور؛ وبالتالي، لا تعدّو أن تكون سوى قراءة شارحة، تحاول أن تنفذ إلى أعماق النصّ لإدراك الحقيقة التي يحملها، والتي أودعها إياه كاتبه³، وقراءة حيّة، فعالة، قوائمها اللامباشرة، وعدم تكريس المعنى الواحد، قراءة رافضة للبدهات، محتفظة دوماً بالبياضات الخصيبة الموجودة في النصّ، كما يقول خالد بلقاسم، البياضات التي تكشف مسوّد النصّ المخفية وراءه.

مرايا القراءة؛ كتابٌ نغيتا فيه الباحثُ خالد بلقاسم بيان أسرار الفعل القرائيّ وتجلياته، وتفاعله الإبداعي مع المقروء، بالوقوف عند تجربة القارئ عبد الفتاح كيليطو التقديّة.

حاول الباحث في هذه الدراسة أن يقف على أهمّ رهانات كيليطو في الفعل الكتاني، والتي شكّلت طابعاً وُسم به منجزه، ذاك الذي يعتمد الحكي القابل للتناسخ و التحوّل إلى أدب، عبر تأويل تنفتح على اللانهاية؛ و بالتالي، يتجاوز الحكي عند كيليطو رصد الأحداث والوقائع إلى إنتاج المعاني وتخصيبها. وهذا، يكون خالد بلقاسم قد بين لنا سرّ القراءة عند كيليطو، وأطلعنا، كذلك، على منهجه في الكتابة، ذلك أنّه "يقراً بالسرد، أي بالامتاع الحكائي، ويسرد بآليات قرائيّة"⁴. فالفعل القرائيّ والفعل الكتاني صنوان للإنصات للعملية الإبداعية في منجز كيليطو التقدي.

وسؤال القراءة، هاهنا، ليس أن نعرض ونحصر مفاهيم الفعل القرائيّ عند كيليطو، ولا أن نسعى لبيان مبعثه والهدف منه، وإثماً هو سؤال "الكيف" الذي يفرض نفسه، وهو كيف يقرأ كيليطو؟ وبالتالي، كيف يكتب؟ باعتبار أنّ العملية القرائيّة تتساهى والعملية الكتابيّة في أعمال الناقد.

1- الفعل القرائيّ مُرتبّ بالدمغة الدّاتية للقارئ:

يرى الباحث خالد بلقاسم، أنّ عملية القراءة، باعتبارها فعلاً شديداً التعقيد، تتطلب قارئاً خليقاً بهذه الصّفة، قارئاً له دمعته الدّاتية، وهذه الدّمة ناتجة عن ما يتولّد من التفاعل بين القارئ والمقروء، "لا بوصفها بُعداً ذاتيّاً للقراءة، بل بوصفها لُعباً جذباً يستند إلى معرفة مكيّنة"⁵، فالممارسة القرائيّة المنتجة للأدب تستوجب خلفيّة معرفيّة، التي من شأنها أن تقرب المسافة بين القارئ والمقروء، وفي وجود هذا التباس، والحفاظ على هذه المنطقة، ينشأ فضاء التأويل، وإنتاج المعنى وتناسل الدلالة. وكلّما كانت القراءة أكثر ذاتيّة، قادت إلى المتاهات؛ وبالتالي، البحث في العمق، وليس عن العمق؛ ذلك "أنّ العمق في أعمال كيليطو ليس مُعطى متخيّفاً يمكن العثور عليه، بل هو آليات ومواقع وشبكة من الحيل"⁶، ومن ثمّ، هو مجموعة قواعد معيّنة، أو بالأحرى استراتيجيات تفكيكية، يقودها لعب خلاق، تتولّد منه مدلولات متواردة؛ لذلك يرى بارت أنّ "القراءة الأكثر ذاتيّة، التي يُمكن للمرء أن يتصوّرّها، ليست سوى لعبة تُقاد انطلاقاً من بعض القواعد..."⁷

فاللعل القرائيّ، دائماً، يراه خالد بلقاسم رهين هذه الدّمة الدّاتية، التي من خلالها يستطيع القارئ أن يسمع صوته الخاص، صوت ممارسته، "فنحن لا نقرأ لمجرد أن نعرف، وإثماً لكي نشارك أو ننخرط في لعبة الخلق، عبر اختراع الأساء أو اجترار الدلالات، أو هبتك البدهات وكشف المحجوبات، أو بخرق الحدود واجتياز العقبات، عبوراً نحو عوالم جديدة، وذلك هو رهان القراءة"⁸.

ما تتيحه الكتابة من هتكٍ للحجب وخرقٍ للحواجز، هو نشدان للعبور صوب الفراغ، للكشف عن مختلف تجسيدات هذه الأنطولوجيا السلبية (الغياب، النقص، الاختفاء) كشرطٍ وجوهٍ للكتابة؛ وهذا ما نجده مغروسًا بقوة في الفنون المعاصرة، بحثًا عن الفراغ بشكل جذري، مقيمةً روابطَ معقدةً ومتعددة الرؤوس مع الأدب.

يدين مورييس بلانشو في خطابه التقدي جزء كبير إلى مالارمي Stéphan Mallarmé (1842-1898)، وتدور كتاباته حول فكرة أوسع نطاقًا، وهي فنٌ "لا يحضر إلا حيث يختفي ويختفي (الكتاب الآتي). يمكن استخدام هذه العبارة بشكل مثيرٍ لوصف التجارب الشعرية للفراغ، مثل قصيدة وليام جيبسون William Gibson (1914-2008) "أغريبا: كتاب الموت" الصادرة عام 1992، من منظور سيميائي، تُعد قراءة القصيدة، في حد ذاتها، شاهدة على التفريغ التدريجي للدال، وانتقال الحضور إلى الغياب، من الكينونة إلى العدم. على التقيض من ذلك، في شعر بول سيلان Paul Celan (1920-1970) يُعد الفراغ البصري دالًا كاملاً. الفراغات والكسور والحذف والتوقيفات التي تملأ شعره مملوءةً بآثار الغياب؛ مما يجعلها قابلةً للسكن، وذات معنى بشكل غريب.

2- الفعل القرائي وليله البهم:

يرى خالد بلقاسم أنه كثيرًا ما يربط كيليطو الليل بالفعل القرائي؛ ذلك أن دالَّ الليل، في جلِّ كتابات كيليطو وتأويله ليس أفقًا تخيليًا خصب، بل منطلقًا قرائيًا مُنفتحًا على احتمالات فكرية متعددة. ومن هنا، يسكن الليل تجربة كيليطو القرائية في معظم أعماله، خاصةً، التي راهنت على لعبة الحكي، كؤلفه: "الكتابة والتناسخ- مفهوم المؤلف في الثقافة العربية- ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، الطبعة الأولى 1985، المركز الثقافي العربي، المغرب"، وكتاب: "الغائب- دراسة في مقامة للحري، الطبعة الثالثة 2007، دار توبقال للنشر، المغرب"، وكتاب المقامات- السرد والأنساق الثقافية- ترجمة عبد الكبير الشراوي، الطبعة الثانية 2001، دار توبقال للنشر ... ، إذ يُعدّ الليل سرًا من أسرار القراءة، فليل القارئ ليلٌ تيه وغموض وارتباب، يقول خالد بلقاسم عن ليل القراءة أنه "يتحدّد في الفعل القرائي، بوصفه نقيضًا للوضوح واليقين والثبات والبداهة، وفيه تترسّخ لعبة القراءة بما هي انتسابٌ إلى التلون والارتباب والاحتمال والتجدد، وبما هي انخراط كذلك في إنتاج هذه الخصائص وتأمين دواها"⁹.

ليلٌ تفقد فيه الدّاث القارئة لغتها، مُحاولَةً استرشاد بصيص نور في ظلام بهم، استرجاع ما ضاع منها في زمن الفقد والتيه، تحاول هذه الدّاث أن تجد لنفسها لغة أخرى تنفذ بواسطتها إلى أعماق التصوص، مُحاورَةً ومستنطقَةً إياها، باستخراج الغرابة فيها، التي حالت دون ظهورها الألفه التي ما فتئت تطفو على سطح التصوص، والبحث عن الغائب في يباضات المتون؛ فالليل عبور إلى بواطن التصوص والإقامة فيها، "أين يجد القارئ نفسه أمام لعبة الظلال، في مواجهة للأبدية الحالكة، مُلقيًا نفسه في فضاء مُعتم، أو مُبحرًا في يوتوبيا سوداء، حيث يتعدّد اقتطاف الدلالات المستترة خلف أشياء النص وأثاثه، الذي يحتجب في زوايا الكتاب أو يقع في تخومه وهوامشه ... إن مشهد العتمة أثناء القراءة هو بداية لقاء نصّي أو لحظة اتصال مثالية، حيث نجد النص الآخر في انتظارنا ملقًى عند الحافة على استعداد أبديّ لوهبنا المعنى."¹⁰ فني ظلّ هذه العتمة نستطيع "محاوره التصوص والتفاد إلى ما يرى فيها، أي التفاد إلى ليلها."¹¹

تعلّمنا القراءة المناورة والحدية، وهي تهدف في استراتيجيتها إلى مخالطة اللاتحدود. يتضمّن هذا الهدف القرائي إعادة كتابة اللغة، حيث يُحوّل جهاز صنع المعنى، من خلال استراتيجيتي: "المحور والتناهي" داخل التصوص، للبحث عن

مؤثرات، على أثر داخل الكتابة، أو معني مستحيل، أو غريبة جذرية. علاوة على ذلك، لا يُمنح ما "وراء الوجود" وضعا متعاليا، بل يقع داخل اللغة، في الواقع كبدل جزء من أجزاء اللغة، ليس تهديداً ولا حليفاً، بل يسيطر على المعنى الكامل إلى الأبد، الذي قد يتحوّل إلى رهين، إن استعرنا معجم ليفيناس Emmanuel Levinas.

إنّ التصوُّص عوالم مبهم، ومن ثمّ، فهي ليست بريئة أليفة، بل غريبة، ولا يُجَلِّي الغرابة، ولا يستحضّر الغائب فيها إلّا ليل القراءة، وفي خضم هذا الخنوس والتجلي، يرى الباحث خالد بلقاسم أنّ "اللّيل هو الوجه الحقيقي للمعنى والقراءة، وجه مندرور للانتساب إلى الغياب، لا بوصف الغياب معطى مستتراً يمكن الإلمام به وحصره، بل بوصفه مسالك ليلية، إنها مسالك اللانهائي، الذي يجعل هذا الغياب رهين التأويل ورهين القراءة"¹². وحتى نقوِّص ميتافيزيقا الحضور والظهور يجب أن نعبّر ونجتاز عتبة الفضاء المألوف إلى عتبة الفضاء الغريب، وهذا أسّ الانتقال من الألفة إلى الغرابة.

3- القراءة وإنتاج الغرابة:

تتخلّق الغرابة في كتابات كيليطو وقراءاته من الانتقال من لغة الكاتب والعبور إلى لغة القارئ، وفي خضم هذا العبور، الذي يُنشئه الفعل القرائيّ يستند العبور إلى العلم الغيري؛ ويقصد به خالد بلقاسم إلمام القارئ بالعلوم الإنسانية وبالتقافات الحديثة؛ وهذا ما يؤكد، دائماً، أنّ الفعل القرائيّ مرْتَبَنٌ بدمغة القارئ الذاتية وبخلفيته المعرفية، فالعلم الغيري هو ما يُبدّد ألفة المقروء التي ظلت محتجبة، وينحو بها نحو التجدد والاعتزاز، إذ لا يمكن للمقروء أن يرحل من وضعية الألفة إلى وضعية الغرابة إلّا بالعلم الغيري¹³. وهنا، يمكن دور القارئ "القارئ الفعلي" أن يكون مُشاركاً أساسياً في توليد المعنى، وفي العملية الإبداعية ككلّ، عبر استراتيجيات قرائية مختلفة، من قبيل التأويل والتفكيك، والتي من شأنها "استنطاق بدايات النص، أو الحفر في طبقاته، أو تفكيك أبنيته، أو كشف آلياته وإجراءاته، أو فضح مطوياته ومستنداته، أو تعرية ألاعبه في إخفاء ذاته وسلطته"¹⁴.

بناء الغرابة قيمة جماليّة، وكثيراً، ما كان الجمال عند الشكلايين مرتبطاً بتغريب اللغة، واستعمالها بشكل غير مألوف، وبوصفهم استيطقيين، فقد آثروا اللغة الشعريّة الأدبية على اللغة اليومية.

ولو تدبّرنا الأسس التي تقوم عليها نظرية التلقي، لألفينا أنّ منظريها استفادوا من طرح الشكلايين، أنّ جعلوا القيمة الجمالية [المسافة الجمالية] للنص، تتحدّد من خلال المسافة التي تفصل بين أفق النص وبين أفق توقعات القارئ؛ لذلك، يرى هانس يابوس، أنّه كلّما اتسعت هذه المسافة الجمالية، كان ذلك محقّقاً للقيمة الجمالية للنص الأدبي، وبالتالي، كلّما ابتعد النصّ الأدبي عن المألوف ازدادت غرابته. "فالشّيء الغريب هو ما يأتي من منطقة خارج منطقة الألفة، ويستعري النظر بوجوده خارج مقرّه، إذن، هناك علاقة جدليّة بين الألفة والغرابة"¹⁵.

السعي في إنتاج الغرابة، والبعد عن الألفة يمكن الكاتب من التغلّب على القارئ؛ وهذا ما أساه خالد بلقاسم، "الظفر على الأعداء"، وهو انتصار الكاتب على قرائه، فيظلّ الكاتب يذود عن نفسه، ويدفع عنها الموت، وبالتالي، يبقى موته أمراً مُرجاً إلى حين، مادام النصّ صامداً في إنتاج المعرفة وخلق الغرابة التي تستفزّ القارئ وتثير دهشته. ويواصل النصّ صموده بحجب حقيقته، في ظلّ تجدد واختلاف القراءات والرؤى والأفكار، باختلاف أشكال مقارنته وأنماط التعاطي معه. ومن جهة أخرى، كلّما كان الكاتب مألوفاً، وآلياته في الكتابة وفي إنتاج المعنى مكشوفة، عرّض نفسه للموت من لدن القارئ،

وليس الموت، ها هنا، "بالمعنى البارقي - موت المؤلف -، بل بمعنى تخلي القارئ عنه؛ وبالتالي، انهزامه أمام قرائه، وموته الكتابي".¹⁶

فإنتاج الغربة وجعٌ وألم يضاف إلى ألم الكتابة؛ ذلك أن الكتابة مرتبطة بقلق وجودي، "قد تبلغ حدّ الدّعر والخوف، فكأن المؤلف، كيفما كان شأنه ومهما كان شكل تأليفه، محلّ ريبة صريحة أو غامضة، ولهذا قيل: لا يزال المرء في فسحة من أمره ما لم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً"¹⁷.

ونخلص، في الأخير، أن الغربة بناءٌ ونتاجٌ، تتجدّد من خلالها التصوّص، وليست مُعطىً محتجّباً نسعى للعثور عليه في ثنايا التصوّص.

تقوم عملية الكتابة، أو الفعل الكتابي، لدى كيليطو، على أنقاض الفعل القرائي؛ وهو في هذا يسيرٌ على خطى لويس بورخيس، واحدٌ من الكتاب الذين تحوّلت قراءاتهم الفعالة والخلّاقة إلى فعلٍ مُنتجٍ للأدب، و"من أهمّ من جسدوا ممارسة الكتابة بما هي قراءة في كتابات غيريّة"¹⁸.

استثمر كيليطو في الموروث العربي، مُحاولاً نقض الغبار عن التراث الأدبي، خاصّة، القائم على السرد والحكي، والذي ظلّ ردحاً من الزمن متغافلاً عنه، مُدجّجاً بآليات قرائيّة متينة، مشرعة على عدّة تأويل، وتتطلّب الحفر في الأنساق الثقافية العربيّة القديمة.

"فإزاحة الأنقاض، كما يذهبُ إلى ذلك هايدغر، عن هذه الموروثات التي أثّرت إلينا من أزمنة سحيقة، والتظر فيها، كما هي، أي كما حدثت في زمنها، هو الكفيل بأن يُخرجنا من مطب المسلمات، ولشُرّع في توطين أنفسنا على الحركة، وعلى التّرحل، وقبول ما يحدث من مقترحات، وخوضها كمخترعات، أو كنوعٍ من المارودة القلقة لأراضٍ، لا تستطيع زرعاً، ولا ماء يهدأ في قاعها"¹⁹.

فاهتمام كيليطو وانشغاله بمقامات الهمداني و الحريري ليس من قبيل الشّغف بفنّ يتغيّا الصّنع اللّغويّة، ويحتفي بالسّجع، بل من قبيل استنبات الحكاية، "والعثور على بذور حكايات نائمة في التصوّص المقروءة [] مولّداً منها حكايات أو نصوصاً بينيّة، أي تلك التصوّص التي تطلّ بوجهه إلى الأدب وبآخر إلى البحث أو المقالة النقدية، فيكون اشتغال القراءة بالتصوّص محكوماً بغاية إنتاج حكاية، أي أن آليات القراءة، في هذه الحال، هي عينها آليات إنتاج الحكاية"²⁰؛ وبالتالي، يترسّخ لدينا أن كيليطو يقرأ بالسرد ويسرد بآليات قرائيّة.

وفي إعادة الكتابة، يحفر كيليطو في القوانين الثقافية، ويندش في الأنساق المضمرّة في أصل هذه الحكايات، ويشرّع باب التّأويل على مصراعيه، فنجد، مثلاً، في كتاب «الأدب والغربة» ينحو منحى التّنظير، وإعادة صياغة المفاهيم وفنّ خلفيّة المعرفة الموجهة لهذا الحفر، فيدقق في بعض المصطلحات، من قبيل: الأدب، التّوع، التّص، قواعد السّرد...

فهو حينما يريد أن يُبرز ويحلّي قوانين السرد، التي يمكن أن يدّعن لها السرد بشكل عامّ، إلّا يريد، على حدّ قوله، "أن يشير إلى العلاقة التي تربط القائم بالسرد بالقواعد، من جهة، والعلاقة التي تربط المتلقّي للسرد بالقواعد نفسها، من جهة أخرى"²¹. وبناءً على حكاية الخياط من ألف ليلة وليلة، يستخلص كيليطو قواعد السرد الثلاثة: «تعلّق السّابق باللاحق»؛ وهي تحكّم نهاية السرد ببداية الحكاية، أمّا القاعدة الثّانية وهي «ارتباط تسلسل الأحداث بنوع الحكاية»؛ وهي تحكّم النوع

في نهاية السرد، أما القاعدة الثالثة "تخصّ «العرف والعادة»؛ أي أنّ تسلسل الأفعال السردية رهينٌ باعتقادات القارئ حول مجرى الأمور، فالقائمُ بالسرد ملزمٌ باحترام هذه الاعتقادات إلى حدّ أنّه يمكن أن يقال إنّ القائمُ بالسرد الفعلي هو القارئ"²². ولم يغب عن كيليطو في «الأدب والغربة» إلى التنبّه إلى الشذرات المنسية في متون الحكايات. فبحثه عن الأنساق المضمرّة فيها، والحفر عنها، هو من صميم الفعل القرائيّ، الذي يطبع منجزه وأعماله. فهو، كثيراً، ما ينطلق من جزئيات، لا يكاد القارئ ينتبه لها، ليستجلي الكليّات المحجوبة، فمسار القراءة لديه يقوم على طي وتقليص المسافة بين الجزئيّ والكليّ؛ وفي ظلّ هذا التماس، ييوج الفعل القرائيّ "بالقضايا الكبرى التي يضمّرها أو يستنبتها التأويلُ في الجزئيّ، الذي يتفكّك بالقراءة"²³.

ففي دراسته لمقامات الحريري، أول ما شرع في تحليله، هو علاقة الاسم بالتمط، فهو يرى أنّ الأسماء الشخصية قليلة في المقامة، وما وُجد من تسميات عامة، فهي نمطية ترمز إلى قيم إنسانية، وهذا، خلافاً للأسماء الموجودة في كتب التاريخ وكتب الحديث وكتب الأخبار الدقيقة في إيراد أسماء الأفراد. فذوبان الاسم في النمط خصيصة تميّز بها الأدب العربيّ القديم، نثره وشعره.

ومما استكشفه كيليطو في الشعر القديم، "أنّ الأسماء لا تدلّ على أفراد بقدر ما تدلّ على أنماط إنسانية"،²⁴ فكلّ شاعر ليله وهنّده التي يتشبّه بها في شعره؛ وقد تدلّ أسماء الأفراد على مفاهيم متعلّقة بنسق ثقافيّ معيّن، وبالتالي، ينتقل الاسم من دال إلى مدلول، فكثيراً ما يرتبط اسم حاتم بالكرم. وهذه كلّها تأويل تجعل الأسماء في الحكاية ليست حبيسة العلمية، بقدر ما تُعطي لها اتّساع مدلولها وتباين مفاهيمها؛ فيإراد الأسماء بهذه التمطية ليس أمراً اعتباطياً ولا تافهاً، كما يرى كيليطو.

خاتمة:

حاولنا في هذه التّراسة الوقوف عند تجربة الناقد المغربيّ عبد الفتاح كيليطو التقديّة، والإنصات لها، من حيث هي تجربة قرائيّة متميّزة، نهض فيها الفعل القرائيّ بمهمّة إنتاج الأدب، تجربة رام فيها الباحث خالد بلقاسم من خلال مؤلّفه «مرايا القراءة؛ الحكى والتأويل عند كيليطو»، أن يقف على تجليات فعليّ القراءة والكتابة لدى الناقد، باعتبار أنّ العملية القرائيّة تتساهى والعملية الكتابيّة في أعماله. فكان هذا التفاعل الخلاق بين حديّ القراءة والكتابة. وهذا هو مدار كتاب خالد بلقاسم، رغم تنوّع محتواه المعرفيّ؛ فالناقد أثريّ عدّة فصول في مؤلّفه، وقسمه إلى ستّة فصول؛ عاجل في الفصل الأوّل: "اللغة والفقْدان، أو ليلُ البحث عن اللّسان"، وفي الفصل الثّاني: "لغتنا الأعجميّة، أو الحلمُ بلغتين"، أما الفصل الثّالث فوسمه: "أسرار الكتابة، أو الأديبُ قارئاً"، أما الفصل الرابع فعنونه بـ: "الكتابة بين النّسخ والنّسج"، والفصل الخامس بـ: "الكتاب"، وأما الفصل الأخير، فتحدّث فيه الباحث عن: "تحوّلات الأصل في سيرورة التأويل". فبالرّغم، من هذا الزخم المعرفيّ والتنوّع في مضمون المؤلّف، كما أسلفنا، غير أنّه يدور حول قضيتين تعدّان أسس دراسته، ألا وهما؛ فعل القراءة وفعل الكتابة، في منجز عبد الفتاح كيليطو التقدي، لما لهذين المفهومين من ارتباط وثيق باللغة والتأويل، الذين يسهمان في إخراجهما من الوجود بالقول إلى الوجود بالفعل.

فمن خلال هذه الرّحلة البحثيّة في تجربة عبد الفتاح كيليطو، ومن خلال تتبّع مساره القرائيّ والكتابيّ، استطاعت هذه الدّراسة، التي تُعدّ ضمن نقد النّقد، أن تكشف جهد الباحث خالد بلقاسم، الذي يمكننا حصره في التّقاط الآتيّة:

- حاول الباحث أن يُجَلِّي ذلك الغُمُوض واللبس الذي اكتنف كتابات عبد الفتاح كيليطو، وألبسها لبوس الغرابة، حتى استعصى على الباحثين والدارسين تفكيك أعماله، وتحديد خلفياته المعرفية والمنهجية، التي ينطلق منها عند الكتابة.
- ثم، إن كيليطو ليس من أولئك الذين يُصرِّحون باستيراثيتهم في الكتابة، ولا من أولئك الذين يكشفون عن أدواتهم المعرفية. فهو بقدر ما يجب عن قُرَّائه هذه الآليات، ويمارس عملية الحو وإزالة الأثر، بقدر ما يدفعهم دفعا إلى اعتماد أدواتهم القرائية لخوض التجربة (إنارة النص) واستكشافها معاً، والآن لخرج القارئ ظمآن، كما دخل أول مرة من مصاحبته لكيليطو.
- أبان خالد بلقاسم عن منهجه الذي درس به أعمال كيليطو؛ وذلك بتوظيفه معجمه المعرفي، من خلال خلفيتين أساسيتين: خلفية تفكيكية، أين وظف الباحث أدوات إجرائية تفكيكية، من قبيل: اللعب، المرح، التشطّي، الهامش، التفكيك، العمق، التأويل، الحفر.
- كما أبان الباحث عن خلفيته الصوفية، مُستهلّاً فصله الأول بمقولة لابن عربي: "مَنْ جَابَ المَفاوِزَ فِي الظُّلُمَاءِ زَادَ تَبَهُّاً عَلَى تَبِهِ"؛ إضافة إلى ذلك، توظيفه المعجم الصوفي، من قبيل، القبسات الروحية، التجلي، الفقد، الحرمان، البرزخية ...
- أظهر خالد بلقاسم كيليطو بمظهر الكاتب السهل الممتنع، العصي على الدارس تصنيفه، أهو بالأديب التأقد، أم بالتأقد الأديب؟ ومهذه اللغة الواصفة، وهذه المبتالغة، يكون خالد بلقاسم قد بين لنا سرّ القراءة عند كيليطو، وأطلعنا كذلك، على منهجه في الكتابة، ذلك أنه يقرأ بالسرّ، أي بالإمتناع الحكائي، ويسرد باليات قرائية.
- ثم، إن أعمالاً بهذه الحمولة الفكرية تستوجب ناقداً حصيفاً من طينة خالد بلقاسم، مدججاً بمخزون ثقافي ومنهجي يُمكنه من الحفر في نصوص تتشكل بنيتها في أنساق ثقافية ومعرفية وفلسفية متعدّدة، ومن إذكاء حدة التوتر بينه وبين نصوص ألفنا حفظها، لكن دون أن نتوصل إلى كشف المنطق الذي يحكمها.

هوامش:

- 1- مورييس بلانشو، كتابة الفاجعة، دار توفال للنشر، الدار البيضاء - المغرب تر: عز الدين الشنتوف، الطبعة الأولى 2018، ص: 136.
- 2 - خالد بلقاسم، مرايا القراءة - الحكى والتأويل عند كيليطو -، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، الطبعة الأولى 2017، ص: 07.
- 3 - عبد السلام بنعبد العالي، القراءة رافعة رأسها، دار توفال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، الطبعة الأولى 2019، ص: 06.
- 4 - ينظر مرايا القراءة، ص: 71.
- 5 - المصدر نفسه، ص: 09.
- 6 - المصدر نفسه، ص: 14، 15.
- 7 - رولان بارت، هسمة اللغة المركز الإنماء الحضاري، حلب- سوريا، تر: منذر عياشي، الطبعة الأولى 1999، ص: 45.
- 8 - علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2005، ص: 14.
- 9 - مرايا القراءة، ص: 143.
- 10 - محمد بكاي، في إزاحة التخوم - فصوص في جاليات التفكيك -، دار الزايفين، بغداد- العراق، الطبعة الأولى 2022، ص: 22-23.

- 11 - مرايا القراءة، ص: 143.
- 12 - المصدر نفسه، ص: 143.
- 13 - المصدر نفسه، ص: 94.
- 14 - علي حرب، الممنوع والممتنع - نقد الذات المفكرة -، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة 2011، ص: 21.
- 15 - عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة - دراسات بنيوية في الأدب العربي -، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة 2007، ص: 69.
- 16 - مرايا القراءة، ص: 100.
- 17 - عبد الفتاح كيليطو، الأدب والارتباب، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية 2013، ص: 10.
- * خورخي لويس بورخيس كاتب أرجنتيني، (1986/1899).
- 18 - مرايا القراءة، ص: 115.
- 19 - صلاح بوسريف، الشعر وأفق الكتابة، دار لمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى 2014، ص: 18-19.
- 20 - مرايا القراءة، ص: 119.
- 21 - الأدب والغربة، ص: 35.
- 22 - المصدر نفسه، ص: 43.
- 23 - مرايا القراءة، ص: 72.
- 24 - الأدب والغربة، ص: 77.

قائمة المراجع :

- 1- خالد بلقاسم، مرايا القراءة - الحكى والتأويل عند كيليطو -، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى 2017.
- 2- رولان بارت، هسوسة اللغة، المركز الإنماء الحضاري، حلب- سوريا، ترجمة: منذر عياشي، الطبعة الأولى 1999.
- 3- صلاح بوسريف، الشعر وأفق الكتابة، دار لمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى 2014.
- 4- عبد السلام بنعبد العالي، القراءة رافعة رأسها، دار توفال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى 2019.
- 5- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والارتباب، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية 2013.
- 6- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة - دراسات بنيوية في الأدب العربي -، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة 2007.
- 7- علي حرب، الممنوع والممتنع - نقد الذات المفكرة -، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة 2011.
- 8- علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2005.
- 9- محمد بكلي، في إزاحة التخوم - قصص في جاليات التفكير -، دار الزايفين، بغداد-العراق، الطبعة الأولى 2022.
- 10- موريس بلانشو، كتابة الفاجعة، دار توفال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، تر: عز الدين الشنتوف، الطبعة الأولى 2018.